﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين هدايةِ قومِ موسَى، وما أُوتِيَ ظَلَمَتُهم، مـن مُـعـجـزاتٍ وطيّباتٍ

بعد أن أثنى عليهم بقوله جلّ شأنه: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾، "شرع يذكّرهم شيئًا ممّا أسبغَ عليهم منَ النِّعم لأجل هؤلاء المهتدين منَ التّكثير بعد القلّة، والإعزاز بعد الذّلّة بجعلهم ممّن يُؤَمّ؛ استعطافًا لغيرهم، ويذكرُ بعضَ عقوباتهم ترهيبًا فقال: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾: "(قطع) قطعتُه قطعًا، ومقطعًا، فانقطع، وقطعتُ النّهرَ قطوعًا. والطّيرُ تقطعُ في طيرانها قُطوعًا، وهنّ قَواطِعُ؛ أي: ذواهبُ ورواجِعُ. وقطع بفلان: انقطع رجاؤه"[2]. وأصل (قطع) يدلُّ على صَرْمٍ وإبانةِ شيءٍ من شيء، القَطعُ: إبانةُ بَعضِ أجزاء الجِرْمِ من بعضٍ فَصْلًا، وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾؛ أي: قسَّمناهم وفَرَّقْناهم وصاروا أحزابًا وفِرَقًا مختلفةً[3].

2) ﴿أَسۡبَاطًا﴾: (سبط) أصلٌ يدلُّ عَلَى امتداد شيءٍ، وانبساطٍ في سهولة. رجل سَبْطُ الكفّين: ممتدّهما، والسِّبْطُ واحدُ الأَسباط:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/132.
(2) الخليل بن أحمد، العين: (قطع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قطع).

وَلد الوَلَد، كأنّه امتدادُ الفروع، ويكون وَلَدَ الابنِ والابنَةِ. قال تعالى: ﴿وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾؛ أي: قبائل كلِّ قبيلة من نِسْل رجلٍ، والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل منَ العرب[1]. وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، هم القبائلُ، وكانوا اثنتي عشرةَ قبيلةً من اثني عشرَ ولدًا من ولدِ يعقوبَ ﷺ، وكانَ كلُّ سِبْطٍ أمةً عظيمةً، والسِّبْطُ في ولدِ إسحاقَ كالقبيلةِ في ولدِ إسماعيل[2].

3) ﴿أُمَمٗاۚ﴾: (أمم) الأمّ: الأَصلُ والمَرجِعُ والجَماعةُ والدِّينُ، كلُّ شيءٍ يَضمُّ إليه سائرَ ما يليه، فإنّ العربَ تُسمِّي ذلك الشَّيءَ أُمًّا، ومِن ذلكَ أُمُّ الرَّأسِ وهو الدِّماغُ. وأُمّ النّجوم: المَجَرّة؛ لأنّها مُجتَمَعُ النّجوم. والأُمّة: كلُّ جماعة يجمعُهم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، وجمعها: أُمَم[3].

4) ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾: (سقى، سقي)، أصلٌ يدلُّ على إشراب الشّيءِ الماءَ وما أشبهَهُ، والاستِسقاءُ: طلبُ السَّقْي، واستَسقَيتُ فُلَانًا إذا طَلَبتَ منه أَن يَسقِيَك، قال تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ﴾[4]. والاستسقاءُ استفعالٌ من طلب السُّقيا؛ أي: إنزالُ الغيث عَلَى البلاد والعباد، يُقال: استسقى، وَسقَى اللّه عبادَه الغيثَ وأسقاهم، والاسم السُّقيا بالضّمّ[5]، وشرعًا: طلبُ إنزالِ المطرِ منَ اللّه تعالى، عند حول حُلولِ الجَدْبِ على وجهٍ مخصوص،[6]. و(أسقاه) سقاهُ، وفي التَّنزيل العَزيز: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُمۡ مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ [المرسلات: 27]، وجعل لَهُ مَاءً أَو سقيا[7]، قال الشّاعر لَبيد بن ربيعة العامريّ:

سَقَى قَومِي بَنِي مَجدٍ وأَسقَى *** نُمَيرًا والقَبائِلَ مِن هِلالِ[8]

5) ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾: (بجس) أصلٌ يدلُّ على تفتُّح الشّيءِ بالماء خاصّة. البَجْسُ: انشِقَاقٌ في قِربةٍ أو حَجَرٍ أو أَرض يَنبُعُ مِنهُ الماءُ، فإن لَم يَنبُعْ فليسَ بانبِجاسٍ، يُقال: بَجَسَ الماء

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبط).
(2) العليميّ، فتح الرّحمن: 3/47.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمّ - أمم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سقى - سقي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سقى - سقي).
(6) سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهيّ: (سقى).
(7) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (سقى).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (سقى).

وانبَجَسَ: انفجر، لكنّ الانبجاسَ أكثر ما يُقال فيما يخرجُ من شيءٍ ضيّقٍ، والانفجارُ يُستعملُ فيه، وفيما يخرجُ من شيءٍ واسعٍ[1].

6) ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾: الشُّربُ: تناولُ كلِّ مائعٍ، ماءً كان أو غيرَه، والمَشرَبُ المصدرُ، واسمُ زمان الشُّرب، ومكانُه، قال تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾[2]، ويتعيّنُ في الآية كونه اسمَ مكان، بدليل تقسيمه إلى اثنتي عشرةَ عينًا، ولو كانت عينًا واحدًا لكان اسمَ زمان؛ أي: عرفوا زمانَ شُربهم، أمّا في الآية فالمرادُ مكانُ الشّرب.

7) ﴿ٱلۡغَمَٰمَ﴾: (غمّ، غمم) أَصلٌ يَدُلُّ على تَغطِيَةٍ وإطباقٍ. والغَمُّ: سَتْرُ الشّيء، ومنه: الغَمَامُ؛ لكونه ساترًا لضوء الشّمس، والغَمامة: السَّحَابَةُ، والجَمعُ غَمام وغَمائم، والغَمام الغَيم الأَبيض، وإنّما سُمِّي غمامًا؛ لأنّه يَغُمُّ السّماء؛ أي: يسترها.

والغَمامُ وردَ على ثلاثة أَوجه: الأَوّل: غَمامُ النّعمةِ: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ﴾ [البقرة: 57]، والثّاني: غمامُ المحنةِ والعقوبةِ: ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]، والثّالث: غمامُ العظمةِ والهيبةِ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: 25][3].

8) ﴿ٱلۡمَنَّ﴾: (منّ، منن) أَصلٌ يَدُلُّ على اصطناعِ خَيرٍ، مَنَّ يَمُنُّ مَنًّا، إذا صَنَعَ صُنعًا جميلًا، ومَعْنَى المَنّ: ما مَنّ اللّهُ به على الإنسان من غيرِ تَعَبٍ منه. والمنّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾: شيءٌ كالطّلّ فيه حلاوة، ينزلُ على شَجَرٍ أو حجرٍ، ويَنعَقِدُ عَسَلًا، ويَجِفُّ جَفافَ الصَّمغِ، كان يَسقطُ على بَنِي إسرائيل منَ السّماء، إذ هم في التِّيه، وسمَّاهُ مَنًّا، بحيث إنّه امتنَّ به عليهم[4].

9) ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾: (سلا، سلو) أَصلٌ يَدُلُّ على خَفْضٍ وطِيبِ عَيْشٍ. والسَّلْوى أصلُها ما يُسَلِّي الإنسانَ، ومنه: السُّلْوَانُ والتَّسَلِّي. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾: طائرٌ يشبهُ السُّمَانَى، ولا واحد له، وسمّاهُ سلوى من حيث إنّه كان لهم به التّسلّي[5]، وقيل:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بجس).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (غم، غمم).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس: (منّ، منن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، العمدة: (سلا، سلو، سَلْوَى).

طائر مثل السُّمَانَى، وقيل: هو السُّمَانَى، واحدُه وجمعُه سواء[1]. وسُئِلَ ابن عبَّاس عَنِ السّلوى، فَقَالَ: "هُوَ الْمُرَعَةُ"؛ وهو طَائِرٌ أَبيض، حسنُ اللَّون، طويلُ الرِّجلين، بِقَدْرِ السُّمَانَى، يقعُ في المطر منَ السّماء[2].

10) ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلاف الخبيث، وهو وأصلُ الطَّيِّب: ما تَستلِذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النّفسُ، يُقال: أرضٌ طيّبةٌ للّتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليِّنةً ليسَت بشديدة؛ وطُعمةٌ طيّبةٌ: إذا كانت حلالًا، والطّعامُ الطَّيِّبُ في الشّرع: ما كان متناوَلًا من حيث ما يجوز، ومنَ المكان الّذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّبًا عاجلًا وآجلًا، وعلى ذلك قوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ مَظاهِرِ الإنْعامِ والإغْداقِ على قَومِ موسَى، وتَوزيعُهم أسْباطًا

يخبرُ اللّهُ تعالى في هذه الآية عن إنعامه على بني إسرائيل، يقول: لمَّا أخرجناهم من أرض مصرَ، وأدخلناهم البرَّ، جعلناهم اثنتي عشرةَ قبيلةً؛ ليكون أمرُ كلِّ سبطٍ متصرِّفًا من جهةِ رئيسهم، فيخفَّ الأمرُ على موسى، فيما يحتاجُ إليه من تعريف أحوالهم، ويَسهلُ عليه جمعُهم، إذا أراد جمعَهم، ويَعلمُ كلُّ فريقٍ مرجعَهم في أمورهم. وأنّه لمّا استسقوا موسى ضربَ الحجرَ، فانبجسَ منه اثنتا عشرة عينًا، بقَدْرِ عددِ الأسباطِ، وأنّه ظلَّلَ عليهم السّحابَ، وأنزلَ عليهم المنَّ والسّلوى، فكَرِهوا ذلك ومَلُّوه، من طول المداومةِ عليه، وقالوا: لن نصبرَ على طعامٍ واحدٍ، وطلبوا استبدالَ الّذي هو أدنى بالّذي هو خير. وما ظلمونا حين لم يشكروا للّه، ولم يقوموا بما أوجب اللّهُ عليهم، ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون[4].

(1) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (السَّلوَى).
(2) ابن الجوزيّ، غريب الحديث: 2/352، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (مرع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/88، ونُخْبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر: 1/171.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ العطْفِ في الآيةِ، ومناسبتُه لما تقدّمَ:

الإنْعامُ بالتّفريقِ أسْباطًا، وقعَ للأمّةِ الهادِيةِ

قولُه جلّ شأنه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]؛ للدّلالة على أنّ الإنعامَ بالتّقطيع المذكور "وقع في الأمّة الّذين يهدون بالحقّ"(1)، وليس المرادُ أنّ التّقطيعَ واقعٌ بالمهديّين وحسب، بل بالقوم كلِّهم، "ذلك أنّ بني إسرائيل قطعةٌ جماعيّةٌ واحدةٌ، فَرَّقها اللّهُ تعالى أقسامًا، ليُعنى كلُّ قسم بنفسه، ويندمج من بعد ذلك في المجموع بالتّأليف، فإنّ الجماعاتِ لا تصلحُ بمجموعها ابتداء، إنّما تصلحُ بأجزائها أوّلًا، ثمّ تنضمُّ الجماعاتُ الصّغيرةُ أو الأجزاءُ بعضها إلى بعض، وتتآلفُ صالحةً متعاونةً عَلَى البرّ والتّقوى"(2).

نُكتةُ المجازِ في قولِه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾:

غَرَضُ التّقْسِيمِ والتّمْييزِ إلى قبائلَ، تَنظيمًا لهم وإنْعامًا عليهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، ذَكَرَ الإنعامَ على بني إسرائيل بتقطيعهم إلى اثنتي عشرة قبيلةً، والتّقطيعُ شدّةٌ في القطع، وهو التّفريق، والمرادُ به التّقسيم، فَشَبَّه التّقسيمَ بالتّقطيع بجامع التّفريق على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وليس منَ التّقطيع العقابُ؛ لأنّ ذلك التّقطيعَ مِنّةٌ منَ اللّه، فالانقسامُ إلى اثنتي عشرة أمّةً وقعَ قبلَ الاستسقاء، حتّى لا يقعُ منَ التّزاحم على الماء، ما يفضي إلى الضّرّ بهم"(3).

دَلالةُ عَوْدِ ضَمِيرِ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾:

التّقطيعُ شامِلٌ لكلِّ القَوْمِ، لا للأمّةِ المهديّةِ وحسْبُ

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، يعودُ الضّميرُ إلى قوم موسى جميعًا؛ "أي: قوم موسى عليه السلام لا الأمّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2980.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142 - 143.

المذكورة كما يوهمه القُرب"[1]. في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159] فالّذين قُطِّعوا ليس الأمّةَ المهديّةَ وحَسْب، بلِ القومُ كلُّهُمْ".

دَلالةُ التّأنيثِ في العددِ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، جاء العددُ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ مؤنّثًا، والمعدودُ ﴿أَسْبَاطًا﴾ مذكّرٌ؛ لأنّ السِّبطَ هنا "بمعنى الفِرقةِ أو الأمّةِ، كما قال: ثلاثةُ أنفُسٍ؛ يعني رجالًا وعَشَرَ أبطنٍ بالنّظر إلى القبيلة"[2]؛ وإنّما كان حملُ الأسباط هنا على مَعْنى الأمّة؛ لأنّه قال بعده: ﴿أُمَمًا﴾؛ وذلك لبيان أنّ تلك الأمم تعودُ للأسباط الاثني عشر[3].

الأَسْباطُ لفْظُهُ مُذكّرٌ، ولكن يُحمَلُ على معنَى الأمّةِ والقبيلةِ

دَلالةُ التّعْبيرِ عن فُروعِهم بلفْظِ (الأسباط):

في قوله تعالى: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ عبّر عن قبائلهم بالأسباط، دون لفظ القبائل؛ لما في ذلك من إشعارٍ بالمدح والتّفضيل؛ "لأنّ الأسباطَ أسباطُ إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام"[4]، ففي ذكرهم بكونهم من ذلك الأصل تمييزٌ لهم، وهو مناسبٌ لمقام الإنعام الّذي تدلُّ عليه الآية.

ذِكْرُهُم بِمَزِيَّةِ عُلوِّ النّسبِ في سِياقِ تقسِيمِهم؛ هو حِفظٌ لهذا التّفضيلِ

دَلالةُ الموقعِ النَّحويِّ لقولِه: ﴿أَسْبَاطًا﴾:

اختلف أئمّةُ التّفسيرِ في موضع ﴿أَسْبَاطًا﴾ الإعرابيِّ، ولكنّهم متّفقون، على أنّه ليس تمييزًا للعدد؛ إذ "لا يجوزُ أن يكون ﴿أَسْبَاطًا﴾ تمييزًا؛ لأنّ التّمييزَ لا يكون إلّا مُفردًا نكرةً"[5]، فجائزٌ أن يكون بدلًا

حذْفُ التّمْييزِ الّذي يُبيّنُ العددَ، بتقديرِ (وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَي عَشْرَةَ فرقةً)

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/82، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/199.
(3) الواحديّ، البسيط: 9/404، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2981.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/143.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/465.

عن ﴿ٱثۡنَتَيۡ﴾، والتّمييزُ الّذي يبيّنُ العددَ محذوفٌ، تقديره: قِطعة أو فِرقة، والتّقدير: قطّعناهم اثنتي عشرةَ فِرقةً أسباطًا؛ لأنّ الأسباطَ معلومٌ أنّهم اثنا عشرَ[1]؛ والمعنى: أنّا قطّعنا هؤلاء القوم إلى اثنتي عشرةَ فرقةً على أصول قبائلهم.

وجائز أن يكون حالًا، والتّقدير: "وقطّعناهم أسباطًا أممًا، اثنتي عشرة قطعةً، و(قطعةً) مُضمَرةٌ"[2]، فكان التّقطيعُ في حالة كونهم قبائلَ متميّزةً بعضها عن بعض، نظرًا لكونهم من نَسْلِ الأسباط الاثني عشر.

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿أَسۡبَاطًا﴾:

التّلميحُ إلى تفضيلِ الأُممِ الأَسْباطِ، بعُلوِّ نسَبِ الأَسْباطِ

في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، ذكرَ الأسباطَ بصيغة التّنكير؛ تعظيمًا لذِكْرِهم، وتفخيمًا لشأنهم، والتّعظيمُ مناسبٌ لِذِكْرِهم في سياق الإنعام على ذراريِّهم بالتّقسيم إلى قبائل، " والمرادُ بالأسباط هنا همُ الذريَّةُ الّتي وُلِدَت لأبناء يعقوب الاثني عشر، الّذين دخلوا مصرَ في عهد أخيهم يوسف، والّذين كان منهم بنو إسرائيل، الّذين أخرجهم موسى من مصر"[3].

الموقعُ النّحْويُّ لقولِه ﴿أُمَمٗاۚ﴾:

بيانُ نَوْعِ العددِ الّذي قُطّعُوا إليه، ودلالتُه في السّياقِ

في قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ نُصِب ﴿أُمَمٗاۚ﴾؛ لأنّه بدلٌ من ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ﴾، أو من ﴿أَسۡبَاطًا﴾، "بمعنى: وقطّعناهم أممًا؛ لأنّ كلَّ أسباطٍ كانَت أمّةً عظيمةً وجماعةً كثيفةَ العددِ، وكلَّ واحدةٍ كانت تؤُمُّ خلافَ ما تؤُمُّهُ الأخرى"[4]. ولم يكن (الأسباط، والأمم) تمييزًا للعدد المذكور؛ "تنبيهًا على قصد المِنَّة بكونهم أممًا من آباءٍ إخوةٍ، وأنّ كلَّ سبطٍ مِن أولئك قد صار أمّةً"[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/465.
(2) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 7/36.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/169، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/388.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/143.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُمَمًا﴾:

معنَى أممٍ؛ أنّها عظيمةٌ، كثيرةُ الانْتِشارِ والتّأثيرِ

قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، دلّ التّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿أُمَمًا﴾ على التّكثير؛ وذلك لبيان عَظَمتِهم، وكثرةِ انتشارِهم وتَشعُّبِهم، فهم أهلٌ لأن يَقْصِدَهمُ النّاسُ؛ لما لهم منَ الكثرةِ والقوّةِ والدّينِ[1]. والمعنى: "وفَرَّقْنا قومَ موسى الّذين كان منهم أمّة، يهدون بالحقّ، وبه يعدلون، ومنهم الظّالمون والفاسقون، فجعلناهم اثنتي عشرة فرقةً، تُسمّى أسباطًا؛ أي: أممًا وجماعات، يمتاز كلٌّ منهم بنظامٍ خاصٍّ، فى معيشته وبعض شؤونه"[2].

دَلالةُ العطْفِ بالواو في: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

معنى عطفِ نِعْمةِ الرّزقِ، على نِعمةِ التّكثيرِ في السّياقِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، فلمّا وصفهم بالكثرة بالتّقسيم عطف عليه "مظهَرًا من مظاهر حكمةِ تقسيمهم إلَى اثني عشر سبطًا، ولم يعطف هذا الخبر بالفاء لإفادة أنّه متّةٌ مستقلّةٌ"[3].

دَلالةُ دُخولِ (إذ) ومعناها، في قوله: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾:

إظهارُ النِّعمةِ وقْتَ الحاجةِ إليها، أدْعَى لمعرفةِ حقِّ المُنعِمِ

إذِ الظّرفيّةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾؛ للدّلالة على زمان الوحي بضَرْبِ الحجر، فهو كان في وقت عطشِهم وحاجتِهم للماء، والتّقدير: "حين استولى عليهم العطشُ في التِّيهِ الّذي وقعوا فيه بسوء صنيعِهم"[4]، فجعل سُقياهم مُتعلِّقًا بوقت طلبهم الماء؛ لأنّ اللّه تعالى أرادَ "أن يبرزَ لهم نِعَمَه وقت الحاجة، فقد تركهم إلى أن عَطِشوا لِيَسْتسقوا وليشعروا بنعمة الرَّيّ"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/132.
(2) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/88.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/143، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4391.

فائِدةُ دُخولِ: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾ بين فعْلِ الإيحاءِ ومضْمونِه:

جاءَت جملةُ الاستسقاء في قَوْلِهِ جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ بين الوحي والموحَى به؛ للدّلالة على أنّ الوحيَ بضرب الحجر، جاء عقبَ سؤالهم إيّاه بعد استيلاءِ العطشِ عليهم، إشارةً إلى أنّ اللّه تعالى يلبّي حاجةَ عباده إذا سألوه، ولجؤُوا إليه، ولو قال: (وأوحينا إلى موسى أنِ اضرب بعصاك الحجر) لما فُهِمَ الدّاعي إلى ذلك.

اللّهُ تعالى يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ، ويكشفُ كُربتَه

مَعْنى ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾:

فعلُ الاستسقاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، يدلُّ عَلَى طلب السُّقيا؛ ويدلُّ ذلك على أنّهم عطشوا، واشتدّت حاجتُهم إِلَى الماء[1]، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يستسقي لهم؛ لأنّ زيادةَ الأحرف الثّلاثة (است)، تدلُّ عَلَى الطّلب، وهذا من براعة بنية الألفاظ في العربيّة لَمَا تحقّقه مِن إيجازٍ في التّعبير.

دَلالةُ الاسْتِسقاء على طَلَبِ السُّقْيَا، ودواعِي الحاجةِ إلى ذلك

نُكتةُ حذْفِ مَفعولِ ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾ الثّاني:

حذف المفعولَ به في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، إذ لم يبيّن ماذا طلبوا، اعتمادًا عَلَى العلم به وشهرته؛ لأنّ الإسقاءَ هو التَّعرُّضُ للماء[2]، فلا يخفى أنّهم طلبوا أن يَسقِيَهم ماءً، ودلّ على ذلك الحالُ والسّياقُ، وكذلك دلالةُ لفظِ السُّقيا، مع ما في ذلك من إيجازٍ في التّعبير. والإنعامُ بالسُّقيا "جامعٌ لنِعَمِ الدّنيا والدّين: أمّا في الدّنيا فلأنّه أزالَ عنهم الحاجةَ الشّديدةَ إِلَى الماء، ولولاه لهلكوا في التِّيهِ، وهذا أبلغُ منَ الماء المعتاد في الإنعام؛ لأنّهم في مفازةٍ منقطعةٍ. وأمّا في الدّين فلأنّه من أظهرِ الدّلائل على وجودِ

إيجازُ العِبارةِ بحذْفِ المعلومِ بالضّرورةِ

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/194، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/353.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/194.

الصّانع وقدرتِه وعلمِه، وعلى صدق موسى ﷺ. والاستسقاءُ طلبُ الماء، عند عدمه وقلّته"[1].

نُكتةُ تَقْديمِ المفعولِ على الفاعلِ في ﴿ٱسْتَسْقَىٰهُ﴾:

عِلّةُ تقديمِ المسؤولِ وتأخيرِ السّائلِ؛ تَفاديًا لعودةِ الضّميرِ على المتأخِّرِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، جاء المفعولُ به مُقدَّمًا، وهو الضّميرُ العائدُ على موسى ﷺ، وأخّر الفاعلَ وهو ﴿قَوْمُهُۥٓ﴾؛ لئلّا يعودَ الضّميرُ العائدُ على متأخّرٍ لفظًا ورتبةً، ولإبراز مدى حاجتهم إلى نبيّهم، في كلّ شؤونهم، فقدّمَ المسؤولَ وأخّرَ السّائلَ.

فائدةُ إضافةِ القَوْمِ إلى الضّميرِ العائدِ ﴿قَوْمُهُۥٓ﴾:

نِسبةُ القومِ إلى موسَى ﷺ، والنِّسبةُ إلى الشّريفِ تَشريفٌ للمَنسوبِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، أضافَ القومَ إلى الضّمير العائد على موسى ﷺ، إشارةً إلى أنّ سببَ إكرامهم لأنّهم قومُ موسى ﷺ وليس لذاتهم. كما أنّ فيه دلالةً على تشريفهم بنسبتهم إليه، فإنّ تعريفَ قومٍ بواحدٍ منهم، فيه دليل على علوّ منزلته، كما أنّه يُرادُ إفادتهم من تلك المنزلة الرّفيعة بتشريفهم، فضلًا عن دلالته على حرصه على قومه، حتّى بات منسوبًا إليهم.

إيثارُ التّعْبيرِ بلفْظِ ﴿قَوْمُهُۥٓ﴾:

كان حَريًّا بهم الصّبرُ تأسّيًا بموسَى، ولكنّهم قومٌ يَستعْجِلون

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، وفيه عبّر عنهم بـ (قوم)؛ تنويهًا بكونهم جماعةً شديدةَ الشّكيمة، فهم يقومون قومةً واحدةً، فالتّعبيرُ" بالقوم إشارةٌ إلى تبكيتِهم، بكونهم أهلَ قُوّةٍ، ولم يتأسَّوا بموسى ﷺ في الصّبرِ إلى أن يأتيَ اللّهُ الّذي أمرَهم بهذا المَسيرِ بالفَرَجِ، بل طلبُوا منه ذلك على الوجهِ المذكورِ في البقرة من إظهارِ القلقِ والدّمدَمةِ"[2]. ويُضاف إلى ذلك أنّ طلبَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/365.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.

السُّقيا كان من جميعهم؛ لأنّ حاجتَهم للماء لم تكن لفردٍ واحدٍ، بل عَطِشوا جميعًا، وفي ذلك إظهارٌ لعِظَم تلك النّعمة عليهم.

دَلالةُ الجُملةِ الواقعةِ تفسيرًا للفعْلِ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

جاء قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ تفسيرًا لفعل الإيحاء، في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾؛ لأنّ (أنِ) تفسيريّةٌ؛ بمعنى: (أي)[1]، فالجملة جاءَت مفسِّرةً للإيحاء؛ لأنّ في فعل الإيحاء معنى القول دون حروفه[2]، ويجوز أن تكونَ مصدريّةً، "و﴿بِّعَصَاكَ﴾ جارّ ومجرور، مُتعلِّقان بـ﴿ٱضۡرِب﴾، و﴿ٱلۡحَجَرَۖ﴾ مفعول به"[3].

الأمـرُ بالضّربِ بالعصَا، وَحْيُ الله ومُعجزةٌ السّماءِ

معنَى الباء، في قوله: ﴿بِّعَصَاكَ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾، دخل حرفُ الباء على (العصا)؛ للدّلالة على أنّ العصا هي آلةُ الضّرب، فالباءُ للاستعانة.

العـصَـا آلـةُ الـضَّـربِ الّـتي ضَـــربَ بـهـا الحَجرَ، بأَمْرِ ربِّ البَشرِ

فائِدةُ إضافةِ العصَا إلى الضّميرِ، بقوله: ﴿بِّعَصَاكَ﴾:

أضاف العصا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ إلى ضمير موسى عليه السلام، إشارةً إلى أنّها العصا ذاتها "الّتي جعلناها لك آيةً، وضربتَ بها البحرَ فانفلق"[4]، وهي الّتي سأله عنها، بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 17].

العـصَـا ذاتُـهـا كـــانَـــتْ بـهـا المـعـجـزةُ، مـن قبلُ ومن بعدُ

سِرُّ تَقْديمِ شِبْهِ الجُملةِ على المفعولِ به:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾، جاء المفعولُ به مؤخَّرًا، وقُدِّم عليه شبهُ الجملة، وأصلُ الكلام: (اضرب الحجرَ بعصاك)، إشارةً إلى أنّ المعجزةَ كائنةٌ في العصا دون الحجر، كما أنّ فلقَ البحر حدث بها وهي أيضًا آيةُ إبْطالِ سِحْرِ

المعـجـزةُ كـائـنـةٌ في العصَا لا في الحـجَـرِ، وذلـك سِرُّ المؤثِّرِ لا الأثَرِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/82، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/474، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/487.
(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/475.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.

السَّحَرَةِ، وإيمانهم برسالة موسى عليه السلام، فهي آلةُ ظهورِ المعجزاتِ بإذن الله تعالى.

معنَى (ال) الجنس في: ﴿ٱلۡحَجَرَۖ﴾:

لا فَـرْقَ بين الأحْجارِ، في إظْهارِ آياتِ الله الكِبارِ

المرادُ بالحَجَر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ جنسُ الحجر، فـ(ال) لتعريف الجنس، فلم "يكن حجرًا معيَّنًا، بل أيُّ حجرٍ ضُرِبَ انْفَجَر منه الماء، وهذا أبلغُ في الإعجاز"[1]؛ أي: اضرِبْ أيَّ حجرٍ من جنس الأحجار، فآياتُ اللهِ تعالى لا تتعلَّقُ بشيءٍ بعينه، فليس هناك فرقٌ بين حجرٍ وحجرٍ، ولكنّ الفرقَ يحدثُ بتسليط الضّربِ بالعصا عليه، ولذا كان قد قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِّعَصَاكَ﴾؛ لأنّ آلةَ الإعجازِ العصا، وليس الحجر.

معنَى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾:

أفْصَحتِ الفاءُ عنِ الفِعْلِ المعطوفِ عليه المحذوفِ

الفاءُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾، هي الفاءُ الفصيحةُ الّتي تُفصِحُ عن محذوفٍ، قال الشّهاب: "هذه الفاءُ فصيحةٌ، وحذفُ المعطوفِ عليه لعدم الإلباس، وللإشارة إلى سرعةِ الامتثالِ، حتّى كأنّ الإيحاءَ وضربَه أمرٌ واحدٌ، وأنّ الانبجاسَ وهو انفجارُ الماء بأمر الله، حتّى كأنّ فعلَ موسى عليه السلام، لا دخل له فيه"[2].

وفائدةُ العطفِ بالفاء دون الواو أيضا لما تدلُّ عليه الفاءُ منَ التّعقيب؛ للدّلالة على سرعةِ امتثالِ موسى عليه السلام، وسرعةِ الإنعامِ عليهم منَ الله تعالى عليهم بظهور الماء.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ:

الانْتِقالُ منَ الأمْرِ بالضّرْبِ إلى أثَرِه، إيجازًا لذِكْرِ الضَّربِ

في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ إيجازٌ بالحذف؛ إذِ التّقدير: ضربَ فانبجسَت، "ونكتةُ الحذف الدّلالةُ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/366.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227، والطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/623، والآلوسي، روح المعاني: 5/83.

سرعة الامتثال، وظهور الأثر في الحال، وعلى أنّ المقصودَ بالأمر أثرُ الضّربِ، لا الضّربُ نفسُه، والإشارةُ إلى أنّ ترتُّبَ الانبجاسِ وإن كان في الظّاهر على ضرب موسى ﷺ، ولكنّه في الحقيقة على أمر اللّه تعالى، وبتعليقه عليه"[1].

كما أنّ فيه مبالغةً على شدّة الامتثال لدى موسى ﷺ؛ إذ هو "لم يتوقّف عنِ اتّباع الأمر، وأنّه منِ انتفاء الشّكّ عنه بحيث لا حاجةَ إلى الإفصاح به"[2].

بَلاغةُ التّعْبيرِ في ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾:

الانبجاسُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ يدلُّ على الانفجار، غير أنّه أخفُّ، فهو يخرجُ كالعَرَقِ ثمّ يسيل[3]، فالانبجاسُ هو خروجُ الماء بقلّة[4]، ومجيئُه على صيغة الانفعال للدّلالة على المطاوعة - فالعيون الاثنتا عشرة كلُّها سالَت استجابةً للضّرب الّذي وقع على الحجر بتلك العصا.

لفظُ (انْبَجس) بمعنى سالَ الماءُ قليلًا، ثمّ انْفَجرَ بقوّةٍ

معنَى (مِن)، في قولِه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ﴾:

ذَكَر أنّ الانبجاسَ في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ وقعَ منَ الحجر، "و(مِن) هنا لابتداء الغاية، والضّميرُ عائدٌ على الحجر المضروب، فانفجارُ الماء كان منَ الحجر لا منَ المكان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [البقرة: 74]"[5]؛ وذلك للدّلالة على أنّ خروجَ الماءِ كان منَ الحجر الّذي ضُرب، لا منَ الأرض، وهذا أبلغُ في الإعجاز، إذ إنّ "خروجَ الماء منَ الأرض السّهلةِ كثيرٌ معهود، ولكنّ خروجَه منَ الحجر هو أمرٌ خارقٌ للعادة"[6].

خُـروجُ المـاءِ منَ الـحَـجَـر الّـذي ضُـــرِبَ، لا من مكانٍ غيرِه

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/195.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/169.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466، وابن عادل، اللّباب: 9/352.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/388.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/369.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2981.

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْه الجُملةِ على الفاعلِ:

قُدِّمَ شبهُ الجملة ﴿مِنْهُ﴾ على الفاعل ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، ولم يقُل: (انبجست اثنتا عشرةَ عينًا منه)، فقدَّم الجارَّ والمجرور المتضمِّنَ ضميرَ الحجرِ على العيون؛ لأنّ شأنَ الإعجاز هو في خروج الماء منَ الحجر، لا في كون العيون اثنتي عشرةَ عينًا.

بُدِئَ بخروجِ الماءِ منَ الحجرِ؛ لأنّه أخطرُ شأنًا من عددِ العُيونِ

الموقعُ النّحويُّ للفْظِ ﴿عَيْنًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، نُصِبَت ﴿عَيْنًا﴾ على التّمييز؛ لبيان العدد المذكور، فالّذي انبجسَ من ذلك الحجر كان عيونًا، فقيَّدها بكونها كذلك؛ للدّلالة على أنّها لم تكن مختلطةً، ولا ماءً واحدًا، "فإن قيل: إذا كانتِ العينُ لفظًا مشتركًا بين حقائقَ، فكيف وقعَت هنا تمييزًا؟ فالجواب: أنّ قولَه: ﴿۞وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ﴾، وقولَه: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾، وقولَه: ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ دليلٌ على إرادة عين الماء، فاللّفظُ مع القرينة مميَّزٌ، والعَينُ منَ الماء شبيهةٌ بالعين منَ الحيوان؛ لخروج الماءِ منها، كخروج الدَّمعِ من عينِ الحيوان"[1].

العُيونُ الغُرَرُ، بيانٌ لِما تفجّرَ وانْبَجسَ منَ الحَجرِ

الموقعُ البَيانيُّ لجُملةِ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، جاءَت لبيانِ شدّة تمايُزِ تلك العيون[2]، فهي "جملةُ استئنافٍ تدلُّ على أنّ كلَّ سبطٍ منهم قد صار له مشربٌ يعرِفُه، فلا يتعدّاه لمشربِ غيرِه، وكأنّه تفسيرٌ لحكمة الانقسام إلى اثنتي عشرةَ عينًا، وتنبيهٌ عليها"[3]. وفصلُ الجملة عن سابقتها؛ لأنّها جاءَت جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: (هل عَلِمَ كلُّ قومٍ مشربَهم من هذه العيون؟)، فهي استئنافٌ بيانيٌّ أو ما يُسمّى بشبهِ كَمَالِ الاتّصال.

فضلُ الجملةِ عن سابقتِها، استئنافٌ بيانيٌّ بليغٌ

(1) ابن عادل، اللّباب: 2/108.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/370 - 371.

فائِدةُ دُخولِ ﴿قَدْ﴾:

مَكانُ شُرْبِ كلِّ قبيلةٍ منهم معروفٌ لدَيْهم ابْتِداءً

في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، افتتح الجملةَ بـ (قد) الدّالّة على التحقيق؛ للدّلالة على تحقّق العلم بمكان الشُّربِ، وأنّ معرفتَهم بمشربهم كانت سابقةً لانبجاسه، وذلك رحمة بهم؛ حتّى لا يقع بينهم منَ التّعدّي والتّباغضِ، مع "ما فيه منِ استقرار أمورِهم، واطمئنان نفوسِهم، وعدم تعدِّي بعضهم على بعض"[1].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُنَاسٍ﴾:

كلُّ سِبْطٍ منهم كان أمّةً كبيرةً، كثيرةَ العددِ، ممّا يُوحِي به التّنكيرُ

في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، جاء لفظ (أُناسٍ) نكرةً، إفادةً للتّكثير، والمرادُ بهم الأسباط، والتّعبيرُ عنهم بذلك "إيذانًا بكثرة كلّ واحدٍ منَ الأسباط"[2]، ويَؤولُ ذلك إلى عظيم الإنعام عليهم، بتقطيعِهم وتقسيمِهم على حسب الأسباط، فهم - على كثرتهم - لا يختلِطُ عليهم مكانُ شُربِهم، ولا يتدافعون دونه.

معنَى ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ وبناؤُها الصّرفيُّ:

عُيّنَ لكلِّ سِبْطٍ منهم مكانٌ لشُرْبِهم، فلا يتجاوزُه لغيرِه

قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ جاء قوله: ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ على وزن (مَفعَل) منَ الشّراب، وهذا الوزنُ يَصلحُ أن يكونَ للمصدر والزّمان والمكان[3]، وفي هذا الموضع يُرادُ به اسمُ المكان بمعنى "موضع الشّرب، والعلمُ بموضع الشّرب كنايةٌ عن عدم التّجاوزِ عنه، كما يُقال: فلانٌ يعرفُ حدَّه؛ أي: لا يتجاوز عنه، ففي الكلام إيجازٌ بليغٌ؛ حيث دلَّ على سبق التّعيين والتّخصيص"[4].

فائِدةُ إضافةِ المشرَبِ إليهم:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، أضاف المَشربَ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/399.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/624.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/354.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/196.

إليهم؛ دلالةً على أنّهم علموا عينَهم الخاصّةَ بهم[1]، فلمّا "أباحَ لكلّ سبطٍ منَ الأسباط ذلك الماء الّذي ظهر من ذلك الشّقّ الّذي يليه، صار ذلك كالْمِلْكِ لهم، وجازت إضافتُه إليهم"[2]، وفي هذا دلالةٌ على مدى إنعام الله تعالى عليهم.

غَرَضُ اختصاصِ كـلِّ قـبـيـلـةٍ بمَشرَبٍ خاصٍّ بهم

دَلالةُ عطْفِ ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ على ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾ عطفَ الإنعامَ عليهم بالتّظليل بالغمام على انبجاس الماء، إذ عَطِشوا وطلبوا السُّقيا من موسى ﷺ، فلمّا ذكرَ "تبريدَ الأكبادِ بالماء، أتبعَهُ تبريدَها بالظِّلِّ فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾؛ أي: في التِّيهِ، ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾؛ أي: لئلّا يتأذَّوا بالشّمس"[3].

معنَى الإنعامِ عليهم بالظِّلالِ، بعدَ الإنعامِ عليهم بسُقْيا الماءِ

فائِدةُ تَعْديةِ الفعْلِ ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ بـ(على):

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾، جاء فعلُ التّظليل متعدّيًا بالحرف (على)؛ ليدلَّ على التّمكُّنِ في الاستعلاء عليهم؛ "أي: جعلنا ذلك بحيث يُلقِي عليهم ظِلَّهُ لِيقيَهم من حرِّ الشّمسِ، وكان يسيرُ بِسَيْرِهم، ويسكُنُ بإقامتِهم"[4]، فهو ظلٌّ مستقرٌّ عليهم، جُعِلَ فوقهم لا يفارقهم، فالغمامُ لا يتعلّقُ بالمكان، بل تعلّقَ بهم، يتحرّكُ بحركتهم. ويمكن أن يكون الفعلُ ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ مُضَمَّنًا الفعلَ (أنعمنا) الّذي يتعدّى بـ(على)، فتكون بلاغةُ التّضمين في قوّة الفعلَيْن؛ أي: أنعمنا عليهم الغمامَ مُظَلِّلًا لهم.

الـغـمـامُ لا يتعلّقُ بالمكان، بـل يـتـعـلّـقُ بـهـم، يـتـحـرّكُ بـحـركـتِـهـم، كمُعجزةٍ ظاهرةٍ

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْه الجُملةِ على المفعولِ:

قدّم الجارَّ والمجرورَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾ على المفعول به، ولم يَقُلْ: (وظلّلنا الغمام عليهم)؛ اهتمامًا بشأنهم،

كـونُ الـغـمـامِ الّـذي يُظلّلُهم، نِعمةً اخْتَصّهمُ الله تعالى بها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/530.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/83.

وتخصيصًا لهذا الغمام بهم، فهو عليهم وحَسْب، ولا يصلُ إلى غيرهم، وفي هذا تسجيلٌ عليهم بالامتنان.

معنَى (أل) في ﴿ٱلْغَمَـٰمَ﴾:

غـــرَضُ جـعْـلِ جِـنْسِ الغـمامِ ظِـــلًّا لـهـم في السِّياقِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾، دخلتِ اللّامُ على الغمام للدّلالة على جنس الغمام، فليس المرادُ أنّ ما ظلّلَهُم هو غَمامةٌ معهودةٌ، بل نوعُ الغمام وجنسُه، صار ظلًّا لهم، فكأنّ وظيفةَ الغمام تغيّرَت، وأُضِيفَ إليها أن يكون ظلًّا لهؤلاء القوم، وهذا يُسْفِرُ عن عظيم آلاء الله تعالى عليهم؛ إذ جَعلَ الغمامَ ظِلًّا لهم، والأصل به أن يأتي بالسُّقيا! وجعلَ الحَجرَ المُصْمَتَ مصدرًا لريِّهم وسَقْيِهم، والأصلُ أن يُبنَى منه ما يُظِلُّهم، ولم يجعلِ الغمامَ هو ما يأتيهم بالماء؛ لأنّ المطرَ لم يكن ليسقيهم؛ ثَمّ إذ لا تمسكه الرّمال.

فائِدةُ العطْفِ بالواو، في: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾:

جـمَـعَ لـهـم مـنَ النِّـعَـمِ ما يَحفظُ وُجودَهم، وقايةً مـنَ الـشّـمـسِ، ووفْرةً للزّادِ

عطفَ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾، فعطَفَ الإنعامَ عليهم بالطّعام، على الإنعام عليهم بتظليلِهم بالغَمام؛ إذ كلاهما منَ النِّعمِ العظيمةِ الّتي لولاها لهلك بنو إسرائيل في تلك الأرض، ولم يَعطف بالفاء؛ لأنّ ترتيبَ إيجادِ النّعم ليس مرادًا هنا، بل مُطلَق ذِكْرِها وجمعِها.

نُكتةُ تَعْديةِ فعْلِ ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ بـ (على):

أنـعـمَ عليهم بالمنِّ والسّلْوَى، على وجهِ الوَفْرةِ والكِفايةِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، جعل فعلَ الإنزال متعدّيًا بـ (على)، ولم يقُل: (أنزلنا لهم)؛ للدّلالة على الإنعام بذلك التّنزيل، فكأنّه تضمّن معنى (أنعمنا). كما أنّه يدلُّ على تمكّن هذه النّعمة منهم، بحيث إنّها وافرةٌ كافيةٌ.

بَلاغةُ تَقْديمِ ﴿عَلَيْهِمُ﴾ على المفعولِ:

قدّم الجارَّ والمجرورَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ

وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ على المفعول به، وهو قوله: ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾، ولم يقُل: (وأنزلنا المنّ والسّلوى عليهم)؛ لأنّ هذا الطّعامَ كان خاصًّا بهم، دون غيرهم، واهتمامًا بشأنهم.

اخْتَصّهمُ الله تعالى بهذا الغِذاء المتميِّز؛ وهو (المنُّ والسّلْوَى)

نُكتةُ تَقْديمِ ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ على ﴿ٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾، قُدّم ذكرُ المنّ على السّلوى؛ لأنّ الامتنانَ به أكثرُ منَ السّلوى؛ لِما أنّه ينزلُ منَ السّماء، ويجدونه صالحًا للأكل بلا عملٍ منهم لإنضاجه، والسّلوى طائرٌ يحوجُهم العملُ لإنضاجه.

المِنّةُ بالمَنّ أظْهرُ، فكان بالتّقديمِ أجْدرَ

دَلالةُ فعْلِ الأمْرِ ﴿كُلُواْ﴾ في الآيةِ:

جاء فعلُ الأمر في قوله جلّ شأنُه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ دالًّا على الإباحة والإذن[1]. ويُضاف إلى ذلك أنّ الأكلَ منَ الضّروريّات، فلا يحتاجُ فيه إلى الإذن والإباحة، ولكن جاء فعلُ الأمرِ الدّالّ على الإباحة؛ للإشعار بهذه النّعمة والتّذكير بها، وإظهار الامتنان عليهم.

إباحةُ الأكلِ وهو مُباحٌ؛ للإشعارِ بالنِّعمةِ في الغُدوِّ والرَّواحِ

معنَى (مِن) في: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾، جاءَت (مِن) للدّلالة على التّبعيض؛ لأنّ المنَّ والسّلوى مِن بعض الطّيّبات[2]، ويجوز أن تكونَ بيانيّةً، والمعنى "كُلُوا طيّبات ما رزقناكم، والمغزى وصفُها، بأنّها طيّبةٌ كلّها، و(مِن) البيانيّة دالّة على كمال طيبها، وكمال الإنعام بها"[3].

المباحُ لهم أكْلُه، هو ما كان منَ الطّيّباتِ

معنَى ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ ودلالةُ جمْعِها وإضافَتِها:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ وصف ما أباحه لهم أكله

نِعَمُ الله جمْعًا وإفرادًا، لا نهايةَ لعطائِه بها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/346.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/347.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2982.

بأنّه طيّبٌ؛ أي: المستلذّ منَ الأكل[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الحرامَ ليس طيّبًا. وجَمَعَها للدّلالة على أنّ الحالَ الطّيّبَ كثيرٌ وفيرٌ، وأنّ فيه غِنًى، وأضافها إلى الرّزق إشارة إلى أنّ الطّيّبَ يُشترطُ أن يكون حلالًا ممّا رزقكم اللّه، وليس ممّا يُؤخَذُ بالتّعدّي والسّرقة والغصب.

معنَى (ما)، في: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾:

كـلُّ رِزْقٍ مـنَ الطّيّباتِ مأمورٌ بـأكْـلِـه في كـلِّ الحالاتِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾: يَحْتَمِلُ أن تكونَ (ما) مصدريّةً، بمعنى: طيّبات رزقكم، ويَحتمِلُ أن تكونَ موصولةً، بمعنى: من طيّبات الّذي رُزقتم به، وهي في كلتا الحالين تدلُّ على المنِّ والسَّلوى[2]، والتّعبيرُ عن ذلك بهذا الأسلوب دون أن يقولَ: (كلوا منه) تصريحًا بكونه رزقًا منَ اللّه تعالى.

سِرُّ التّعْبيرِ بصِيغةِ التّعظيمِ، في: ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾:

الـلـهُ وحـدَه رَزَقَـهـم ذلـك الرِّزقَ العظيمَ؛ لأنّـه خـارجٌ عـنِ المعْهودِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، أسند الرّزقَ إلى ضمير الجمع الدّالِّ على التّعظيم؛ أي: رزقناكم إيّاه "بصفة العظمةِ القاهرةِ، لِمَا نريد ممّا لم تعالجوه نوع معالجة"[3].

والتّعبيرُ عن ذلك بهذا الأسلوب دون أن يقولَ: (كلوا ممّا رُزقتم)؛ تصريحًا بكونه رزقًا منَ اللّه تعالى أتاكم، بما لنا منَ العظمة، فهو رزقٌ عظيمُ الشّأن، وكان كذلك، لأنّهم لم يبذلوا عليه جهدًا، فهو رزقٌ عظيمٌ.

بَلاغةُ تَرتيبِ ذكْرِ النِّعَمِ:

رُتِّـبـتِ الـنِّـعـمُ المـذكـورةُ حسبَ الأهميَّةِ والأولـويّـةِ في حياةِ النّاسِ

جاءتِ النّعمُ مذكورةً بهذا التّرتيب: فذَكر أوّلًا نعمةَ الماء؛ لتعلُّقِها بما جاء في أوّل الآيةِ منَ التّقطيع المذكور، فمن فوائد التّقسيم أن لا يقعَ بينهم خلافٌ؛ لأنّ الماءَ يأخذونه من مكانٍ محدّدٍ، بخلاف المنّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.

والسّلوى فهو لا يتعلَّقُ بحجرٍ، ثمّ ذكر تبريدَهم من حرارة الشّمس؛ لتعلّقه بالماء والحرّ، ثمّ أتبعه بالطّعام، وهو يأتي بعدَ العطش، في قدرة الإنسانِ على البقاء حيًّا أطول زمان دونه.

دَلالةُ واوِ العطْفِ، في: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾:

كُـفرانُ النِّعمةِ ظُلْمٌ يَعودُ على صـاحـبِـه، ولا يَطالُ المُنعِمَ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، عَطفَ بالواو الفصيحة؛ الّتي تُفصحُ عن وجودِ محذوفٍ، فالمعطوفُ عليه مُقدَّرٌ؛ "أي: فظَلَموا بِكُفْرانهم هذه النِّعم، وما ظلمونا، فالواو فصيحة"[1]. ويمكن أن تكون واوًا للحال على معنى: فَظَلَموا بِكُفْرانهم هذه النّعم أنفسَهم فقط، والحال أنّهم ما ظلمونا.

دَلالةُ (ما) على ضميرِ العظَمةِ، ونفْيِ وُقوعِ الظّلْمِ:

عَظَمةُ الله أعلَى وأجـلُّ من ظلْمِ الظّالمين

في قولِهِ جلّ شأنُه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، عُبِّرَ بـ (ما) النّافية؛ للدّلالة على أنّهم لم يظلموا المتّصفَ بالعظمة، والتّعبيرُ بصيغة التّعظيم في النّفي يدلُّ على انتفاء قدرتِهم على إيقاع الظّلم على العظيم ﷻ، فإنّ عظمتَه لا يمكن أن يَضرَّها شيءٌ من ظُلمِكم، كما أنّ أعمالَ الصّالحين لا تنفعُه ﷻ، فهو الغنيُّ عن عباده.

معنَى الواوِ في قوله: ﴿وَلَـٰكِن﴾:

الـغـرَضُ من عـطْـفِ حُـكـمٍ مُـثـبَـتٍ، على حُكْمٍ مَنفيٍّ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾[2]، فعطفَت الآيةُ حكمًا مثبتًا على حكمٍ منفيٍّ؛ وذلك لأنّ الواو جاءَت مع (لكن) الاستدراكيّة، الّتي تقع بين نقيضين. ويمكن أيضًا أن تكونَ واوًا للحال كما تقدّم.

معنَى الحرفِ ﴿وَلَـٰكِن﴾، في الآيةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، جاءَت هذه الجملةُ بعد الجملة الّتي نفى فيها وقوعَ الظّلم، فَتَشَوَّفَتِ النّفسُ إلى

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/189.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/437.

ذكر مَن وقع به الظّلم، واتّصل به ضررُه، فاستدرك على الجملة المنفيّةِ، بإثبات وقوع الظّلمِ على أنفسهم[1]، فوقعَت (لكن) هنا موقعًا على أحسن ما يكون؛ "لأنّه تقدّم قبلها نفيٌ، وجاء بعدها إيجابٌ.. لأنّ الاستدراكَ الحاصلَ بها، إنّما يكون يدلُّ عليه ما قبلها بوجهٍ ما، وذلك أنّه لمّا تقرّر أنّه قد وقع منهم ظلمٌ، فلمّا نُفي ذلك الظّلم أن يصلَ إلى الله تعالى، بقيتِ النّفسُ متشوِّفةً ومتطلِّعةً إلى ذِكر مَن وقع به الظّلم، فاستدرك بأنّ ذلك الظّلمَ الحاصلَ منهم، إنّما كان واقعًا بهم"[2].

إثـبـاتُ وُقـوعِ الـظّـلـمِ على الجهةِ الّتي صَدرَ منها الظّلْمُ

نُكتةُ دُخولِ ﴿كَانُوٓاْ﴾، في الآيةِ:

عبّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ عن ظُلمِهِمْ أنفسَهم مصدَّرًا بالفعل (كان)؛ للدّلالة على رسوخ ذلك الظّلم فيهم، فهو جِبِلَّةٌ وطبعٌ فيهم[3]، فقوله: ﴿كَانُوٓاْ﴾ مُشعِرٌ "بأنّ ذلك من شأنهم ومن طريقتهم، ولأنّها أيضًا تكون في كثير منَ المواضع تُستعمَلُ حيث يكون المسنَدُ لا ينقطعُ عنِ المسنَدِ إليه، نحو قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40]؛ فكان المعنى: ولكن لم يزالوا ظالمي أنفسِهم بكثرة ما يصدرُ منهم منَ المخالفات"[4].

الـظُّـلْـمُ جِـبِـلَّـةٌ فـيـهـم، وطـبـعٌ لايُفارِقُهم، رَغْمَ نِعَمِ الله عليهم

فائِدةُ تَقديمِ المفعولِ على عامِلِه:

قدَّم المفعولَ به في قوله جلّ شأنه: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، ولم يَقُل: (وكانُوا يظلمُونَ أنفُسَهُم)؛ لأنّ أثرَ ظُلْمِهم لا يتخطّاهم[5]، فتقديمُ المفعولِ به هنا أفادَ تخصيصَ الظّلم بأنفسِهم، ومعنى الآية: "وما رَجَع إلينا ضَررُ ظُلمِهم بِكُفْرانِهِمُ النِّعَمَ، ولكن كانوا يَضرُّون

مَن ظَلَمَ بكُفْرانِ نِعَمِ الله لديه، رَجَعَ وَبالُ ظُلْمِهِ عليه

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/189.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/348.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/348.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227.

أنفسَهم، ويرجِعُ وبالُ ظُلْمِهم إليهم"[1]. وفيه اهتمامٌ بمَن وقع عليه أثرُ الظّلم، ولا سيّما وقد سبق ذِكرُ الظّلمِ في الآية.

فائِدةُ مجيءِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾:

سِـرُّ التّـعْـبـيرِ بالـظّـلْـمِ دَلالـةٌ عـلى الإصْـرارِ، وعلى الاستمْرارِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، عبَّر بالظّلم الّذي هو أصلٌ لكلّ الذّنوب صغيرِها وكبيرِها، وجَمَعَ بين الفعل الماضي والفعل المضارع "للدّلالة على تماديهم فيما هم فيه منَ الظّلم والكفر"[2]، فالظّلمُ خُلُقٌ مستقرٌّ فيهم. وفيه إشارةٌ على إصرارهم على المعاصي، ومع الدّلالة على الاستمرار، فإنّ فيه دلالةً على حكاية الحال الماضية، تصويرًا لِظُلْمِهم.

بَلاغةُ المتشابِهِ اللّفظيّ بين آيةِ الأعرافِ: (160) وآيتَي البقرةِ: (57)، و(60):

الـتّـعْـبـيرُ بـالانْـبـجـاسِ هنا وبالانْفِجارِ هـنـاك، والاخْـتِـلافُ بِضَميرَيِ الغَيْبَةِ والخِطابِ

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يشابه الآيتين في سورة البقرة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]، وقوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: 60]، إلّا أنّ بينهما اختلافين:

الأوّل: عبَّر بالانبجاس هنا، وفي البقرة بالانفجار: فالانفجارُ الانشقاقُ، والانبجاسُ اسمٌ للشَّقّ الضَّيِّق، فهما مختلفان اختلافَ العامِّ والخاصِّ، ولعلّه انبجس أوّلًا، ثمّ انفجر ثانيًا، وكذا العيون:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/169.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

يظهر الماءُ منها قليلًا، ثمّ يكثرُ لدوام خروجه[1]. وعبّر بالانفجار في سورة البقرة لأنّه في سياق الذّمّ والتّوبيخ، فكان ذكرُ الإنعام المبالَغِ أوقعَ مع التّوبيخ، وقد يكون في كلّ سورةٍ تصويرٌ لمرحلةٍ منَ المراحل، فالأمر بدأ أوّلًا بالانبجاس، ثمّ الانفجار.

والثّاني: الاختلافُ بضَميرَي الغَيْبة والخِطاب، فقد جاء بضمير الغَيْبةِ في الأعراف: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ﴾، وضمير الخطابِ في البقرة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ [البقرة: 57]؛ لأنّ ما في سورة البقرة، قصد به التّوبيخَ، فكان الخطابُ أليقَ به[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

قطّعْناهُم ومزّقْنَاهُم:

التّمزيقُ أدلُّ على العقوبةِ؛ لأنّه لا يُؤدّي إلّا إلى التّفْتيتِ والتّخرُّقِ

القَطعُ: إبانةُ بَعضِ أجزاء الجِرْم مِن بعضٍ فَصْلًا، أمّا التّمزيق فهو من (مَزَقَ)، وأصلُه يدلُّ على تَخَرُّقٍ في شَيءٍ. فالتّمزيقُ أدلُّ على العقوبة؛ لأنّه لا يؤدّي إلى التّنظيم، بل إلى التّفتيت والتّخرُّق، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ: 19]؛ أي: قطَّعناهُم ومزَّقْناهُم في البلاد بعد اجتماعهم، فتمزيقُهم يدلُّ على تَفَرُّقِهِمْ وتَشَتُّتِهِمْ، وزَوالِ مُلكِهم، وقَطعِ دَابِرِهِم[3].

وقد وردَ التّمزيقُ في القرآن الكريم أربعَ مرّاتٍ في آيتين، وهما قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: 7]، وقولُه جلّ شأنه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ: 19]، أمّا التّقطيعُ في الآية فهو نعمةٌ أنعمها اللّهُ تعالى عليهم؛ إذ يُسهِّلُ رعايةَ أمرِهم بتقسيمِهم إلى قبائلَ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/529.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/144.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (مزق).

انْبَجست وانْفَجرت:

الانْبِجاسُ أَخفُّ مِنَ الانْفِجارِ، فكلُّ انْبِجاسٍ انفجارٌ، لا العكسُ

يُقال: بَجَسَ الماء وانبَجَسَ: انفجر، لكنّ الانبجاسَ أكثرُ ما يُقال فيما يخرجُ من شيءٍ ضَيّقٍ، والانفجارُ يُستعملُ في الضَّيِّق والواسع، فالانبجاسُ أخفُّ منَ الانفجار[1]، فكلُّ انبجاسٍ انفجارٌ من غير عكس[2]. فالانبجاس: خروجُ الماء الجاري بقلّةٍ، والانفجارُ: خروجُه بكثرة، والجمعُ بينهما أنّ الماءَ ابتدأ بالخروج قليلًا، ثمَّ صار كثيرًا[3].

ولذلك ورد قولُه تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾، وفي البقرة ورد قولُه جلّ شأنه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة: 60]، فعبّر في سورة الأعراف بالانبجاس؛ لأنّه كافٍ في تعنيفهم وذَمِّهم على كُفْرِهم بعد المنّ به، أمّا في سورة البقرة فعبّر بالانفجار؛ لأنّ السّياقَ في بيان إسراعهم في المُرُوقِ، والانفجارُ أنسبُ له، ليكون التّعنيفُ حينئذٍ أشدَّ[4].

الغَمامُ والسَّحابُ:

يُلاحَظُ في الغَيْمِ السَّتْرُ، وفي السّحابِ الحركةُ وانْسِحابُه بالهواءِ

الغَمامُ من (غمّ، أو غمم)، وأَصلُه يَدُلُّ على تَغطِيَةٍ، والغَمُّ: سَتْرُ الشّيء، ومنه: الغَمامُ لكونه ساترًا لضوء الشّمس[5].

أمّا السّحابُ فهو منَ الجذر (سَحَبَ)، وأصلُه يدلُّ على جَرِّ شَيءٍ مَبسوطٍ ومَدِّهِ، تقولُ: سَحَبتُ ذَيلِي بالأَرضِ سَحبًا. وسُمِّي السَّحابُ سَحابًا؛ إمّا لجرِّ الرّيح له، أو لجرّه الماء، أو لانجراره في مَرِّه[6]، فَيُلاحَظ في الغيم السّترُ، وفي السّحاب الحركةُ وانسحابُه بالهواء.

ولا شكَّ أنّ بني إسرائيل إذ كانوا في التِّيهِ، فإنّهم أحوجُ للسَّتْرِ، فكان الغمامُ نعمةً في حقّهم لا السّحاب.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.
(2) ابن عادل، اللّباب: 9/352.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/388، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غم، غمم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سحب).

وقد ورد الغمامُ في القرآن أربعَ مرّات، وهي قولُه تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة: 57]، وقولُه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]، وقولُه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾ [الأعراف: 160]، وقولُه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ﴾ [الفرقان: 25]، فيُلاحظُ أنّه في ثلاثٍ منها اقترن بالظِّلِّ، فالغمامُ والظّلُّ مترابطان، والرّابعة في سياق تشقّق السّماء يوم القيامة، ولا يناسبُه ذكر النّعمة بالسّحاب.

الأولادُ والأسباطُ:

يُفيدُ اسْتِعمالُ السِّبْطِ الدّلالةَ على الامْتِدادِ؛ واستُعمِلَ في أولادِ يعقوبَ

قال العسكريّ: "الفرق بين السِّبط والوَلد: أنّ أكثرَ ما يُستعمَلُ السِّبطُ في ولد البنتِ، ومنه قيل للحسن والحسين ﷺ سِبْطا رسولِ الله ﷺ، وقد يُقال للولد سبطٌ، إلّا أنّه يفيدُ خلافَ ما يفيده؛ لأنّ قولَنا: سِبطٌ يفيدُ أنّه يمتدُّ ويطولُ. وأصلُ الكلمة منَ السُّبوط، وهو الطّولُ والامتدادُ، ومنه قيل: السَّاباط لامتداده بين الدّارين، والسَّبَطانة، ما يُرمى فيها البُنْدُق من ذلك، والسّبطُ شجرٌ سُمِّي بذلك لامتداده وطوله"[1].

فالسِّبْط كولد الولد؛ إلّا أنّه استُعمِلَ في اللّغة للدّلالة على ولد البنت عُرْفًا[2]، ويفيدُ استعمالُ السّبط الدّلالةَ على الامتداد؛ ولذا استُعمِلَ في الآية للدّلالة على أولاد يعقوبَ من إسحقَ عليهما السلام.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 271.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/174.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»